مها سيد عبد الرحمن
قصة قصيرة
بلاد الطيبين

الجزء الأول

في بلادٍ بعيدة لم يذكرها التاريخ، ولا يُعرف أن كان ما رُوِيَ عنها حقيقة أم محض خيال! ثلاث بلداتٍ متجاورة شكلت رؤوس مثلث منتظم، حكمهم ثلاث إخوة (عمران، حكيم وحيدر) بعد وفاة جدهم مختار الذي رعاهم من بعد وفاة والدهم وهم صغار.

عُرف عنهم العدل والطيبة، لم يسكن بلادهم سوى ذوي النفوس الطيبة والفطرة السليمة حتى سميت ببلاد الطيبين!

أرضها غناءه تكسوها المروج الخضراء وتجود بشتى أنواع الزروع ما عدا منطقة الأرض البور الواقعة في المنتصف تماماً بين البلدات الثلاث والتي يحظر عليهم الاقتراب منها أو المرور بها.

تسود المحبة والوئام بين سكانها، قيل عنها أن الشيطان لم يعرف إليها طريقاً لسنواتٍ طويلة حتى جاء ذلك اليوم..

صراخ ونحيب وعويل ارتج صداه في أرجاء البلدة الشمالية -بلدة عمران-، لم يبق شخصٌ واحد في منزله، كل أهالي البلدة يملئون الشوارع يبكون في هلع، تذرف أعينهم الدمع بلا توقف، بينما صنع كبار رجالها حلقة مغلقه حول جثمان "فرحة" الغارق في الدماء، دماء الغدر التي سالت للمرة الأولى منذ سنواتٍ طويلة على أرض بلاد الطيبين، "فرحة" الشابة ذات العشرين ربيعاً ابنة عابد الرجل المحبوب من الجميع، الجالس بجوار جثمانها وقد خارت قواه وفقد عقله القدرة على الاستيعاب ولسانه القدرة على الحديث، يمسك بيدها الباردة متأملاً في وجهها الشاحب في ذهول وهو يبكي بحرقة.

ركض البعض نحو منزل عُمران ينادونه على استعجال، يخبرونه بما حدث، انتفض جسده في فزع من هول ما سمع وهو يعلم جيداً ماذا الذي يعنيه ذلك، ثم أسرع إلى حيث يرقد جثمان فرحة، أفسح له الرجال الطريق ليمر إليها، فوقف ذاهلاً لوهلة قبل أن يصيح قائلاً:

-"من أول من وجدها على هذه الحال؟"

رفع منصور يده وهو يقول بصوتٍ مرتجف:

-"أنا! كنت في طريقي إلى مزرعة والدي فعثرت عليها ملقاةً على الأرض على تلك الحال، حاولت إيقاظها لكنها كانت قد فارقت الحياة"

صاح في صرامة:

-"فلترافقني أنت وعابد إلى منزلي الآن!"

قالها وانطلق نحو منزله في انفعالٍ جارف يتبعه منصور الذي يرتعد خوفاً وخلفهما عابد يعاونه رجلان على النهوض ثم رافقاه حتى وصل إلى منزل عمران.

ظل أهالي البلدة يقفون أماكنهم في انتظار خروج عمران وتفسيره لتلك الحادثة البشعة التي تحدث للمرة الأولى في بلدتهم، لكن اجتماعه مع منصور وعابد بحضور ابنه الأكبر ومساعده "رحيم" طال كثيراً وزاد من حيرة الجميع وارتباكهم، حتى طلَّ عليهم أخيراً عمران من شرفة منزله ليخاطبهم، بينما خرج كل من عابد يتبعه منصور -الذي كان يبكي بكاءً لافتاً- من باب المنزل، ثم صاح عمران في انفعال:

-" منصور السبب فيما حدث لفرحة لكن عن غير قصد، لذلك قررت معاقبته بطرده من بلدتي إلى الأبد! وليلزم الجميع منازلهم اليوم حتى آذن لكم بمغادرتها!"

أنهى حديثه وسارع بالعودة إلى داخل المنزل وكأنه يهرب منهم، بينما تعالت الهمهمات بين أهالي البلدة وهم عاجزون عن فهم ما يحدث، ثم اتجهت أنظارهم الحانقة نحو منصور الذي ازداد بكاءه بشده مع الشتائم التي بدأت تنهال عليه من الجميع ووصفه بالقاتل! ما عدا شخصٌ واحد وقف بعيداً يراقب ما يجري مبقياً على لثامه يغطي معظم وجهه ليواري ضحكته الخبيثة من تحته.

جعل منصور يصيح في حرقه وعيناه معلقتان بهدى شقيقة فرحة التي وقفت تحدق فيه ذاهلةً بعينين حمراوين من كثرة البكاء، ترمقانه بأعتى نظرات الكره والسخط:

-"لم أقتلها! أقسم أني لم أقتلها ولا أعرف ما الذي حدث لها؟!"
أصابتهم كلماته بالارتباك قليلاً لكنه سرعان ما زال، فهم يعرفون عمران جيداً لم يكن ظالماً أو كاذباً يوماً، لن يتهم منصور بجريمةٍ كهذه إلا لو كان على يقين من أنه

الفاعل، كادوا يهجمون عليه لضربه لولا أن أوقفهم بعض الرجال واصطحبوه إلى أطراف البلدة ليغادرها، تبعته أمه وأخوته لعدم قدرتهم على البقاء فيها بعد ما حدث. بينما اتجه عابد في صمت نحو جثمان ابنته وحملها إلى منزله استعداداً لدفنها دون أن ينطق بحرفٍ واحد متجاهلاً عشرات الأسئلة التي انهالت على مسامعه من الجميع.

دخل عمران إلى غرفته بعد أن طلب من رحيم الإسراع باستدعاء اخوته حكيم وحيدر، ثم أطلق العنان لدموعه الحارة لتنساب على وجنتيه وهو يضرب رأسه بكلتا يديه مردداً:

-"ويحك يا عمران ماذا فعلت؟!".

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى وصل حيدر وحكيم إلى منزله، دخلا إلى غرفته فوجداه جالسٌ على الأرض في حالٍ يرثى لها، سارعوا بمساعدته على النهوض فنظر إليهما بعينين زائغتين قائلاً:

-" لقد نُقِض العهد، لا أعرف في ماذا أخطأت؟! سيعودون لينتقموا!"

أخفض حكيم رأسه في أسى بينما ربت حيدر على كتفه ليهون عليه وهو يقول:

-"لا تلم نفسك يا عمران فعلنا ما بوسعنا ونفذنا كل ما وصانا به جدنا ونحن على يقين بأنهم سيعودون يوماً ما لا محالة! علينا التوقف عن النحيب والتفكير فيما هو قادمٌ الآن!"

هزَّ حكيم رأسه موافقاً وعقب قائلاً:

-"حيدر على حق سيكون انتقامهم شديد، علينا التفكير جيداً في وسيلةٍ لمقاومتهم، أعتقد أن الوقت قد حان لنخبر الناس بالحقيقة!"

اتسعت عينا عمران وهو يحدق في وجه حكيم مع كلمته الأخيرة، بينما أراد حيدر تغيير دفة الحديث قبل أن يتشاجرا فقال متعجباً:

-"هل قتلها منصور حقاً؟!"

نظر إليه عمران بارتباكٍ شديد وأجابه قائلاً:

-"لا ليس هو! حققت معه كثيراً وتيقنت من أنه ليس الفاعل"

هبَّ حكيم واقفاً وهو يصيح منفعلاً:

-"ظلمته يا عمران!"

لم يحتمل عمران سماع تلك الكلمة وقد كان شعوره بالذنب يمزقه، فاعتدل في حدة ووقف قبالته وهو يدافع عن نفسه قائلاً:

-"لم أظلمه! أردت فقط أن يهدأ الناس حتى لا يتزايد فزعهم مع وجود قاتل حر طليق لا أحد يعلم من هو، بينما أمرت رحيم بأخذ بعض الرجال والذهاب إلى موقع الحادث للتحقيق في الأمر مستدلين ببعض ما قاله منصور وعند العثور على القاتل سأخبر الجميع ببراءته وأعيده إلى البلدة!"

لم يكد ينهي عبارته حتى اهتز البيت اهتزازاً شديداً ثم ثارت عاصفة رملية هوجاء، ركض ثلاثتهم نحو الخارج لمشاهدة ما يحدث وكذلك جميع أهالي البلدات الثلاث، عاصفة شديدة من رمال رمادية اللون تدور حول البلدات الثلاث بقوةٍ هائلة أجبرت الجميع على العودة إلى داخل منازلهم للاحتماء منها قبل أن تتجاوزهم مقتربةً من الأرض البور في المنتصف، عادوا ثانيةً إلى الخارج لمشاهدة ما يجري ليجدوها قد تضاعفت سرعة دورانها على نحوٍ مفزع قبل أن يخرج من الأرض كيان أسود هائل الحجم له عينان مستعرتان كقطعتين من الحمم هاربتين من الجحيم، وفي يده عصاً ضخمة رفعها إلى عنان السماء ثم هوى بها بكل ما أوتي من قوة إلى الأرض، ومع ضربها للأرض سرت في جسد كل شخص يسكن أرض بلاد الطيبين رعشة شديدة ارتج لها جسده في قوة، قبل أن تختفي العاصفة ويختفي معها أي أثر لذلك الكيان ويعود الهدوء إلى الأجواء وكأن شيئاً لم يكن. حالة من الهلع انتابت الجميع مع ذلك المشهد المخيف الذين لا يعرفون له تفسير، لكنهم اطمأنوا قليلاً لعودة الأمور إلى طبيعتها.

هكذا بدا لهم لكن الحقيقة أن لا شيء عاد كما كان مطلقاً!

الجزء الثاني

في جنازة مهيبة اجتمع فيها العديد من أهالي البلدات الثلاث لتشييع جثمان فرحة نحو مثواها الأخير وسط حالة من الحزن البالغ، يتقدمهم عمران وحيدر وحكيم الذين ما أن انتهى دفنها حتى طلبوا من الجميع الإنصات لما سيقولون، لكن قبل أن ينطقوا تعالت صرخات امرأة قادمةٌ من بعيد تطلب النجدة فقد سُرق منزلها من مجموعة من الشباب الملثمين، تبادل حكيم وعمران وحيدر نظرات تشي بالكثير من القلق، بينما تفاجأ الجميع بتلك الحادثة التي لم يسمعوا لها مثيلاً قط في بلادهم من قبل، قرر عمران تأجيل الحديث الذي كان ينوي قوله مؤقتاً، وانطلق بعض الرجال نحو منزلها ليتحققوا مما يحدث، لم تمض دقائق حتى جاء رجل إلى عمران يركض في فزع يخبره بأن أرضه قد بارت فجأة ومات محصوله بالكامل، رافقه عمران إلى أرضه ليرى بنفسه ما حدث بينما قرر كل من حيدر وحكيم انتظاره في منزله ليجتمعوا بعد عودته، ما أن رأى الأرض على تلك الحال حتى اعتصر عينيه بقوة في ألمٍ مغمغماً:

-"ليست سوى البداية!"

عاد إلى منزله يجر قدميه جراً وفي طريق عودته، وجد طفلة صغيرة تنوح في فزع فسارع إليها ليهدئ من روعها ويستفهم عما أصابها، فأخبرته بأن والدتها مرضت فجأة بعد أن سقتها جارتها مشروباً أعدته لها منذ قليل، فرت دمعة من عين عمران ثم سارع باستدعاء الطبيب الذي بالكاد تمكن من انقاذ حياتها بعد أن أكد أنها تعرضت لتسمم شديد جراء ذلك المشروب.

عاد عمران إلى منزله وهو في غاية الحزن، جلس بجوار أخويه يقول في أسى:

-" الوضع في غاية الخطورة وسيزداد شيئاً فشيئاً إن بقينا هكذا!"

عقب حيدر قائلاً:

-"نفوسهم لم تختبر من قبل، مقاومتهم لن تكون على نفس القدر سيسقط الضعفاء أولاً"

ثم قال حكيم في جدية:

-" علينا أن نعيده إلى حيث كان! يجب أن نعلم كيف فعلها جدُّنا من قبل!"

عقب حكيم على قوله بصوتٍ خافت ونظراتٍ مرتبكه:

-"لا أحد يمكنه مساعدتنا سوى محجوب عراف البلاد قديماً!"

ثار حيدر وصاح غاضباً:

-"ماذا تقول؟ لقد حذرنا جدنا من اللجوء إليه مهما كان السبب، كما أننا لا نعرف إليه طريقاً منذ أن طرده منذ سنواتٍ طويلة"

أجابه حكيم في إصرار:

-"ليس أمامنا خيار آخر يا حيدر لا أحد بمقدوره مساعدتنا سواه"

هب عمران واقفاً يقاطع حديثهما في صرامة:

-" بل يجب أن نعرف أولاً كيف حدث ذلك؟ كيف نجح في التسلل بيننا ونقض العهد؟! بالأحرى يجب أن نجد قاتل فرحة! كما ينبغي معاقبة المذنبون حتى يرتدع البقية!"

قالها وانطلق إلى الخارج مسرعاً وهو ينادي على ولده رحيم ليعلم إلى ماذا توصل في التحقيق في الجرائم التي حدثت في البلدة وعلى رأسها قتل فرحة، بينما انصرف كل من حيدر وحكيم إلى بلدتيهما ليفعلا الأمر ذاته وقد وصل إليهما أنباء عن الكثير من الأحداث غير المألوفة التي تحدث ببلدتيهما كما يحدث ببلدة عمران، وقد اتخذ حكيم قراره في البدء بالبحث عن محجوب في أقرب وقت مهما كانت العواقب!

****

نجح رحيم في القبض على السارقين وكذلك أحضر تلك الجارة التي سممت جارتها وقام بوضع كلٍ منهم في سجن قام رجاله ببنائه في وسط البلدة تنفيذاً لأوامر عمران ليكونوا عظةً للبقية، لكن ذلك لم ينجح في ردعهم كما ظن عمران، بل توالت الجرائم في البلدة الواحدة تلو الأخرى وعمت الفوضى حتى امتلأ السجن بالمذنبين وفقد عمران الأمل في السيطرة على الوضع كلياً!

****

استيقظ عابد من نومه وهو يصرخ في فزع ويتصبب عرقاً محاولاً التقاط أنفاسه، سارعت إليه هدى تربت على كتفه قائلةً:

-" ما الأمر يا أبي؟ كلما غفوت قليلاً تستيقظ على تلك الحالة!"

أشاح بنظره بعيداً وقد كان يتهرب من إجابة سؤالها كل مره لكنه قرر إخبارها رغم علمه بما تكنه لمنصور من مشاعر وكذلك كان هو، فقد كان في انتظار جمع محصول مزرعة والده رحمه الله وبيعه ليتقدم لخطبتها، لكن انتهى كل شيء بعدما فعله بفرحة، قال عابد بارتباك:

-"سأخبرك يا ابنتي! منذ اليوم الذي قُتلت فيه فرحة وأنا في انتظار فهم ما جرى لها ولماذا قتلها منصور؟ في ذلك اليوم عندما اجتمعنا في بيت عمران لم أكن أقوى على التركيز في شيء لم أنتبه لما قاله منصور، ثم ذهبت إلى عمران عدة مرات لأسأله عما حدث لكن إجاباته لم تكن وافيةً لتفسر الحادث ولا عقوبته لمنصور كانت شافيةً لغليلي منه، بات الأمر مريباً للغاية بالنسبة لي لا أنفك عن التفكير فيه ليلاً ولا نهاراً، حتى راودني حلم ذات يوم أني أذبح منصور بيدي، لكنه لم يكن حلماً عادياً كان يبدو حقيقياً على نحوٍ عجيب، ثم أخذ يتكرر كلما غفوت حتى أنني أصبحت أخشى النوم لكي لا أراه، وما كان يقلقني أكثر أنه أصبح يشغلني كثيراً أثناء يقظتي حتى...."

صمت قليلاً وقد بدى التوتر جلياً على وجهه، ثم استطرد قائلاً:

-"حتى أصبحت أفكر في تحقيقه! والأخذ بثأرٍ فرحة"

شعرت هدى بغصة في قلبها مع عبارته الأخيرة، وسالت دموعها الحارة على وجنتيها ثم قالت في مرارة:

-"لم أعد أعرف الصواب من الخطأ! كل ما يحدث غريب للغاية، آخر ما كنت أتوقع سماعه من أبي الرجل الطيب المسالم أن يأتي يومٌ ويرغب في قتل أحد، ما كان الثأر ليعيد فرحة! لكنه حقها لا أستطيع منعك منه وحتى لا تظن أني أحاول حماية منصور فهو لا يستحق الحياة بعد ما فعله بأختي، لكني أخشى عليك من الندم فلإراقة الدماء لعنة لا تنفك!"

أنهت حديثها وانصرفت باكية، كان لكلماتها أثر عميق في نفسه لكنها لم تثنيه عما قرر فعله!

****

ذهب حكيم لزيارة العجوز أصلان الذي كان رفيق جده وكانت علاقته وثيقة بمحجوب العراف، جلس بجوار سريره قائلاً:

-" كيف حالك يا جدي أطال الله عمرك!"

هزّ أصلان رأسه مجيباً:

-"الحمد لله، طالت الرحلة كثيراً واقترب موعد الرحيل!"

ربت حكيم على يده ثم سأله في ارتباك:

-" أريد الوصول إلى العراف محجوب لأمر ضروري للغاية، هل تعرف أين يمكن أن أجده؟!"

نظر إليه أصلان طويلاً مما ضاعف من ارتباكه، ثم قال:

-" احذر يا ولدي! محجوب لا يأتي من ورائه خير أبداً، كل ما أذكره من حديثه قديماً أنه قبل مجيئه إلى هنا كان يسكن مع قومه في كهوف تقع أسفل الجبال الغربية عند ضفة النهر، لكن لا أحد يعلم إن كان ذهب إلى هناك بعد أن طرده جدك أم لا؟ هذا إن كان لا يزال حياً من الأساس!"

****

عاد حكيم إلى منزله وهو يعتزم الذهاب إلى الجبال الغربية للبحث عنه، وأثناء سيره انتزعه من تفكيره صوت منصور ينادي عليه في فزع -وقد لجأ إلى بلدته للبقاء فيها بعد أن طرده عمران-:

-"سيدي حكيم! انتظر أرجوك!"

-"ماذا دهاك يا منصور؟!"

-"اسجني أرجوك! أو قيدني بحيث لا أستطيع الحراك!"

ارتفع حاجبي حكيم في دهشه وأجابه قائلاً:

-"هل جننت يا منصور؟ ما الذي تقوله؟!"

تلاحقت أنفاس منصور في انفعال وهو يقول بصوتٍ متهدج:

-"ليس هناك حل آخر! اسجني قبل أن أقتل عمران!"

تغيرت ملامح وجهه وارتسمت نظرة مريبة في عينيه مع نطقه بقتل عمران على نحوٍ أثار مزيجاً من الدهشة والخوف في نفس حكيم على حدٍ سواء!

الجزء الثالث

جلس حيدر يستمع بإنصات لشكوى عمران من الحال الذي آلت إليه البلاد وأهلها، وذلك العدو الخفي اللي يهاجمهم بضراوة، لم يتوقع أن تكون نفوسهم بتلك الهشاشة! خضوع واستسلام يثير الشفقة قبل الأسف، ومن ناحيةٍ أخرى بوار الأراضي الذي يتزايد يوماً بعد الآخر فيكثر الجوع وتكثر معه السرقة والأحقاد مما يزيد الأمور سوءاً، تنهد تنهيدةً عميقة ثم استطرد شكواه قائلاً:

-"لم أعد أعرف ما يمكنني فعله، حتى رحيم ولدي الذي ربيته بيدي وكنت أستند عليه في تلك الظروف العصيبة، وصلني العديد من الشكاوى بشأنه، أصبح يرغم المزارعين الذين لم تبور أراضيهم بعد بدفع أتاواتٍ له ولرجاله من ثمارها، سقط الجميع في قبضت عدونا بكل سهوله، أخبرني يا حيدر ماذا أفعل؟ أشعر بأني غريقٌ وسط بحر هائج بلا أمل في النجاة!"

طال صمت حيدر بعض الشيء قبل أن يجيبه قائلاً:
-"إن كنت ترى أنك قد فقدت زمام الأمور فيمكنني أنا أن أتولاها! أترك لي حكم بلدتك وارتاح من هذا العناء!"

قطب عمران حاجبيه واتسعت عيناه في ذهول وقد كانت تلك العبارة آخر ما توقع سماعه من أخيه على الإطلاق! شعر بغصةٍ شديدة تمزق نياط قلبه مع ذلك الطمع الذي رآه في عيني أخيه للمرة الأولى، وقد أدرك بداية سقوط حيدر في قبضتهم هو الآخر!

****

انتظر حكيم حتى هدأ روع منصور قليلاً، بعد أن استضافه في منزله وأحضر له بعض الطعام والشراب، ثم قال بنبرةٍ جادة:

-"والآن يا منصور أخبرني ما الذي تعنيه بطلبك أن أضعك في السجن قبل أن تقتل عمران؟"

ازدرد منصور ريقه في صعوبة قبل أن يجيبه بصوتٍ مرتجف:

-" لقد ظلمني عمران! اتهمني بقتل فرحة وأقسم أني لم أفعل! ثم طردني ليلحق العار بي وبأسرتي مدى الحياة! لم يعطني الفرصة لأدافع عن نفسي أو أن يحقق في الأمر أولاً قبل أن يصدر حكمه، قضى على حلمي في الزواج من هدى شقيقة فرحة، وأصبحت منبوذاً من الجميع بجرمٍ لم أرتكبه!"
قاوم دمعةً كادت تفر من عينيه رغماً عنه قبل أن يستكمل حديثه:

-"مع كل ذلك الحزن والغضب مما فعله بي أصبحت تراودني أحلامٌ مفزعة، ليست أحلام عادية، بل تبدو وكأنها حقيقة، أرى نفسي فيها أقتل عمران بلا رحمة، أمزق جسده إرباً في استمتاعٍ منقطع النظير، تكررت تلك الأحلام كثيراً كنت أجزع منها في البداية ثم أصبحت أألفها لكن الأخطر من ذلك أنها سيطرت على تفكيري تماماً حتى وجدتُ نفسي أستمتع بها ثم أصبحت على استعدادٍ تام لتنفيذ ما يحدث فيها بلا تردد، لكني شعرت بالخوف من نفسي لأول مرةٍ في حياتي وكأني شخصٌ لا أعرفه! ولا أستطيع السيطرة عليه وكأن هناك شيءٌ آخر يتحكم بي شيء أعجز عن التصدي له ومنعه!"

قاطعه حكيم في انفعال:

-" بل أنك قد فعلت يا منصور! فعلت يا ولدي! قاومتَه، بل وانتصرت عليه أيضاً بمجيئك إلى وطلبك مني بوضعك في السجن حتى لا تفعل ما يأمرك به، مع أن أسبابك قوية للغاية، روحك نقية ونفسك طيبة!"

حدَّق فيه منصور بنظرةٍ بلهاء وهو لا يفهم حرفاً مما قاله، أردف حكيم حديثه قائلاً:

-"اسمعني يا منصور أنا أعلم أنك بريء وكذلك عمران وسنعلن ذلك أمام الجميع قريباً جداً، لكن بلادنا تتعرض في هذه الأيام لحربٍ ضَروس لن يصمد فيها سوى ذوي النفوس الطيبة أمثالك، سأخبرك بكل شيءٍ لاحقاً، أما الآن فأريدك أن ترافقني في رحلةٍ هامةٍ للغاية، رحلة نحو الجبال الغربية!"

****

أعدَّ عابد عُدَّته وعزم على الذهاب إلى بلدة حكيم ليقتل منصور، خرج في الصباح الباكر قبل أن تستيقظ هدى حتى لا يراها ويضطر لإخبارها بوجهته، انطلق في طريقه بخطواتٍ سريعة حتى وصل إلى بلدة حكيم، سأل أحد المارة عن المنزل الذي

يسكن فيه منصور فدله عليه، اقترب من المنزل لكنه قرر الاختباء خلف جدار المنزل المقابل له ليراقب خروج منصور من منزله ثم يباغته بطعنةٍ من سكينه تماماً كما قتل فرحة، لكن أثناء وقوفه جاء شاب إلى منزل منصور ودقَّ الباب ففتحت والدته وأخبرته بأن منصور خرج البارحة ولم يعد حتى الآن ولا تعلم إلى أين ذهب!

تسلل الإحباط إلى نفس عابد وقرر الانتظار وقتاً أطول، لكنه أدركه التعب فاستسلم للعودة إلى منزله على أن يرجع إليه لاحقاً ليقتص منه، وفي أثناء عودته إلى بلدته خطر بباله أن يمر بطريق الأرض البور في منتصف البلدات الثلاث، وقد اعتاد جميع سكان بلاد الطيبين على الانتقال من بلدة للأخرى من الطرق الجانبية دون المرور بالمنتصف نهائياً، كانت تلك أوامر مختار حاكم البلاد قديماً واعتادوا على طاعته وتنفيذها دون أن يعلم أحد السبب الحقيقي وراء ذلك، سوى ما أخبرهم به من أنها أرضٌ ملعونه من سيمر بها ستبور أرضه على الفور، وقام ببناء سور على أطراف البلدات الثلاث ليعزلهم عنها تماماً!

شعر عابد برغبةٍ مُلِحة بالمرور بها لا يعرف لماذا؟! اقترب من السور فوجده بلا حراسة كما يُفترضُ أن يكون، فتسلل من بين فتحاته إلى الداخل وسار نحو المنتصف، شعر بضيقٍ شديد في نفسه وكأنه على وشك الاختناق! سقط أرضاً وهو يجاهد ليدخل بعض الهواء إلى رئتيه وجعل يتلفت حوله محاولاً طلب النجدة، حاول الصراخ فلم يقو عليه، بدأ الظلام يجتاح عقله وعينيه وبينما هو على تلك الحال انتفض جسده في ذعر حينما وجد العشرات منهم يحيطون به يملئون الأرض من حوله عن آخرها! كيانات سوداء بأعين حمراء متقدة تنظر إليه على نحو يثير الهلع، زاد اختناقه وهو يحاول الفرار لكن جسده لا يقو على الحراك، ثم ظهر من بينهم ذلك الكيان الهائل الذي ظهر يوم مقتل فرحة، حدثه بصوتٍ أثار الذعر في كل ذرةٍ من كيانه قائلاً:

-" أنت خادمي من اليوم! سترى ما لا يراه غيرك وستسمع ما لا يسمعه سواك! ستكون عراف هذه البلاد حتى أُحكم قبضتي على كل من فيها خاصة أولئك الذين يظنون أن بإمكانهم مقاومتي، سيدفع الجميع الثمن غالياً!"

****

سار منصور برفقة حكيم لثلاثة أيامٍ متواصلة قبل أن يصلا إلى الجبال الغربية أملاً في الوصول إلى محجوب، سارا بمحاذاة ضفة النهر بحثاً عن الكهوف، وأثناء سيرهما سمعا صوت طفلٍ صغير يلعب بمحاذاة النهر، تعجبا كثيراً ثم ركض منصور بحثاً عنه حتى وجده، وما أن تلاقت عيناه بعيني الطفل حتى شعر بأنه قد رآه من قبل لكن لا يذكر أين ومتى؟! اقترب منه وسأله:

-"هل تعرف أين أجد العرّاف محجوب؟"

لمعت عينا الطفل على نحوٍ لافت أثار الخوف في نفس منصور قبل أن يشير إلى كهفٍ قريب. عاد منصور إلى حكيم الذي جلس يرتاح قليلاً منتظراً عودته وأخبره بما حدث، ثم سارا معاً باتجاه الكهف الذي أشار إليه الطفل، بحث منصور عن الطفل أثناء سيره فلم يجده، تعجب كثيراً لذلك لكنه تابع سيره بصحبة حكيم حتى وصلا إلى الكهف، دخل منصور أولاً بخطواتٍ حذرة ونظراتٍ مترقبة، دار بعينيه في المكان فرأى شعلةً من الضوء يتراقص لهيبها من بعيد، ارتعد جسده في فزع عندما اخترق صوت أجشّ أذنيه قادم من الداخل يقول بلهجةٍ آمرة:

-"اقترب يا منصور!"

الجزء الرابع

بخطواتٍ مرتجفة وضربات قلبٍ متسارعة توغل منصور إلى أعماق الكهف من حيث جاءه الصوت الذي أمره بالاقتراب يتبعه حكيم، تجمدت أقدامهما وسكنا عن الحراك لوهلة وأعينهما مثبتة على ذلك الرجل الضرير العجوز الطاعن في السن ذو البشرة الداكنة، له وجه مستدير تكسوه التجاعيد العميقة حتى يظنه الرائي للوهلة الأولى تمثال منحوت ببراعة وليس حقيقة، وأنف ضخم يتوسط وجهه يزيد من غلظة ملامحه، يجلس وسط كهفه الممتلئ بالطيور الجارحة والحيوانات المحنطة ذوات الأعين المفتوحة والتي شعرا لوهلة أنها تراقبهما عن كثب! عدا ذلك الصقر الذي يقف على كتفه في ثبات!

قال العرّاف محجوب:

-"حكيم أيضاً هنا! مضى وقتٌ طويل منذ أن التقينا آخر مرة"

ثم احتدت نبرة صوته الأجشّ وهو يقول:

-"هل تذكر ذلك اليوم؟!"

سرت قشعريرة باردة في جسد حكيم عندما تذكر اليوم الذي يقصده محجوب كان لايزال صغيراً لكنه يذكر جيداً ذلك الشجار العنيف الذي دار بين جده ومحجوب والذي لم يعرف سببه حتى الآن، ثم انتهى بطرد الأخير من البلاد!

صمت حكيم قليلاً ثم أجابه قائلاً:

-"لا طائل من استرجاع الماضي الآن! انتهى كل شيءٍ منذ زمنٍ بعيد"

لم يوارِ محجوب تلك الابتسامة الخبيثة التي ارتسمت على وجهه والتي أثارت الفزع في قلبي كل من حكيم ومنصور على حدٍ سواء، تمالك حكيم أعصابه واستطرد حديثه قائلاً:

-"جئتك لأسألك عن أمرٍ هام!"

قاطعه محجوب في حدة قائلاً:

-"أعرف لم جئت! لقد نُقِضَ العهد وسالت الدماء وعمت الفوضى والخراب بلاد الطيبين!"

اتسعت عينا منصور في ذهول والتفت محدقاً في وجه حكيم الذي لم يكن أقل منه دهشةً فهو لم يتوقع أن يكون ذلك العجوز الضرير على علمٍ بما يحدث في بلادهم، لكنه تجاهل ما يشعر به وأجابه في تحدي:

-"جيد إذن! لقد وفرت عليَّ الكثير من الحديث، جئت أسألك إن كان هناك حل لإعادته إلى سجنه ثانيةً قبل أن تهلك البلاد"

أجابه محجوب ساخراً:

-"ولماذا تتوقع مني أن أكترث لأمر هلاككم؟!"

أجابه حكيم في عصبيه:

-"ظننت أن الزمن يمكن أن يكون قد غيرك وأطفأ جذوة شرورك، لكن يبدو أنني كنت مخطئاً! وكان جدي على حق حينما حذرنا من أن نلجأ إليك مهما حدث!"

ثارت ثائرة محجوب وعلا صوته على نحوٍ مفزع زاد من حدته ذلك الصدى الذي تعالى بداخل الكهف وهو يصيح قائلاً:

-"لم يكن جدك محقٌ في شيء يوماً! كل ما فعله كان خاطئاً وكل ما يحدث في بلادكم اليوم من تحت رأسه! حذرته من مغبة اليوم الذي سيُنقض فيه العهد لكنه لم يستمع سوى لنفسه فقط، ظنَّ أن بمقدوره مخالفة نظام الكون وإيجاد عالم مثاليّ خالي من شتى أنواع الشر محصنٌ من الشياطين، عندما كثرت الأطماع والضغائن وزاد القتل والقتال في بلادكم قديماً، وكان يفكر ليل نهار في إصلاح حال البلاد وأهلها، وثق في ذكائه أكثر مما ينبغي لدرجة أنه فكر في سجن شيطانٍ مارد وعمل عهد يمنع أي شيطان آخر من الاقتراب من بلادكم وإلا قُتل المارد في سجنه في الحال! ولا ينقض العهد سوى دماء غادرة تسيل على أرض البلاد، ظن مختار أن ذلك مستحيل الحدوث فكيف ستسيل دماءٌ غادره في أرض لا تطؤها الشياطين؟!

أنا من نفذتُ ذلك العهد! رغم أنني حذرته من أنه سيأتي يوم ويجدون طريقة لنقضه مهما طال الزمن، ووقتها لن ينجوَ أحدٌ يسكن تلك البلاد من أذاهم وسيكون انتقامهم

مهلكاً، لكنه لم يكترث لما قلت وانتظر حتى انتهيت من تنفيذ طلبه ثم كان أول ما فعله بعدها هو طردي من البلاد بحجة أنني مصدر للشرور ولا مكان لي في بلاده!

والآن ماذا؟! كل ما حذرته منه تحقق! وتأتي أنت بعد كل تلك السنين لتطلب مني المساعدة؟!"

امتقع وجه حكيم وقد تذكر ما أخبرهم به جده مختار هو وأخويه، أنه أنقذ بلادهم وحصنها من شتى أنواع الشرور بحبسه لمصدرها تحت الأرض البور، واستمتع برؤية أهلها يعودون إلى صوابهم دون أن يعلموا بم فعل، ثم حذرهم من مغبةِ أن يعلم أي شخصٍ في البلاد بهذا السر الخطير مخافة أن يدفعهم فضولهم لمعرفة المزيد فيكون ذلك وسيلته إلى الخلاص!

وللإبقاء على بلاد الطيبين هكذا يتعين على عاتقهم هو وأخويه مسئولية منع أيٌ من أهلها من الاقتراب من الأرض البور حتى لا يجد الشر الكامن تحت أرضها طريقه للخروج باقتراب أحد منها، كما يجب عليهم أيضاً منع أي غريبٍ من دخولها للحفاظ على أمن أهلها الطيبين من أن تسيل دماء أحدهم على أرضها غدراً وإلا سيكون هلاكهم جميعاً!

شعر حكيم بأن قدميه لم تعودا قادرتين على حمله حتى أنه كاد يسقط أرضاً مع إحساسه بالذنب الشديد من تفريطهم في وصية جدهم رغم أنه لا يعلم في ماذا أخطأوا؟ أمسك به منصور وساعده على الجلوس، ثم التفت بعصبيه نحو محجوب قائلاً بانفعال:

-"أياً كان ما حدث سابقاً نريد أن نعرف هل بإمكانك مساعدتنا أم نعود أدراجنا؟!"

قهقه محجوب ضاحكاً ثم قال ساخراً:

-"منصور! يا لك من طيب القلب تريد مساعدتهم بعد كل ما فعلوه بك! لقد أثر موقفك النبيل هذا فيَّ كثيراً وسأقبل مساعدتهم لأجلك أنت فقط! لكن عندي شرطٌ واحد، أن أذهب معكم إلى هناك! إلى بلاد الطيبين!"

وعقله يتخيل عودته إلى هناك واستعادة مكانته القديمة!

تبادل كل من حكيم ومنصور نظرةً تحمل الكثير من القلق والحيرة خاصة حكيم الذي وجد نفسه بين حجري رحى من ناحية تحذيرات جده والعجوز أصلان منه ومن ناحيةٍ أخرى احتمال كونه الوحيد القادر على إنقاذ بلادهم!

أغمض عينيه في أسف قبل أن يأخذ نفساً عميقاً ويقول في حزم:

-"وأنا قبلت!"

****

ذهب عابد إلى حيدر تنفيذاً للأمر الذي أُمِرَ به وهو بداخل الأرض البور، طلب لقاءه وجلس بصحبته لوقتٍ طويل، بدأ حديثه معه بما يحدث في البلاد ثم أخذ يشتكي من ضعف عمران وتحميله مسئولية ما يحدث بدايةً من مقتل فرحة وحتى الآن، بعدها أشاد بمدى قوة حيدر وتماسك بلدته مقارنة ببلدتي كل من عمران وحكيم، وأنه الأجدر بحكم البلدات الثلاث!

وهكذا تمكن عابد من إشعال لهيب الفتنة بين حيدر وأخويه. أُعجِب حيدر بحديثه كثيراً وأمره ببقائه في بلدته، ثم شرع عابد في تنفيذ الجزء الثاني من الخطة التي أُمِرَ بتنفيذها، وهي استقطاب الناس إلى مجلسه ليُحكم سيطرته عليهم بمساعدة أعوانه وبقدراته التي ستسلبهم عقولهم، حتى نجح في أيامٍ قلائل في أن ينال لقب عرّاف البلدة، وأصبح له شأنٌ كبير فيها فازداد قربه من حيدر أكثر وأكثر حتى أصبح على استعدادٍ تام للهجوم على بلدة عمران والاستيلاء عليها حتى وإن كان الثمن قتل أخيه!

****

سمعت هدى ما يقوله الناس عن والدها، فهالها ما سمعته! وذهبت راكضةً إلى بلدة حيدر للقائه، لكنها صُدِمت حينما منعها حراسه من الدخول وأمروها بالعودة إلى منزلها في الحال، بل والأكثر من ذلك أنهم قد أبلغوها رسالةً منه بألا تحاول لقاءه ثانيةً، وستصلها كل احتياجاتها حتى باب منزلها من قبل أن تطلبها لكن إن حاولت لقاءه فستدفع ثمن ذلك حياتها!

لم تجد هدى تفسيراً لما يجري! بقيت وحيدة حائرة تبكي في مرارة ثم ذهبت إلى عمران تخبره بما حدث معها، أنصت إليها عمران في قلقٍ بالغ ثم قال لها في أسى:

-"نفذي ما طلبوه منكِ يا ابنتي فأنت أضعف بكثير من مواجهة أذاهم، لقد أحكموا قبضتهم على والدك، ما حدث لفرحة جعل نفسه ضعيفة للغاية لن يجد الخلاص منهم إلا برؤيتك، لهذا منعوكِ من لقائه!"

لم تفهم هدى حرفاً مما قاله، فعقبت متسائلة:

-"من هم؟ ماذا تعني؟"

أطرق في أسف وهو يجيبها قائلاً:

-"أعداؤنا يا ابنتي، سبب كل ما يحدث في بلادنا الآن، لازلتِ صغيرة لكي تفهمي ما أقول! عليكِ فقط البقاء بمنزلك والدعاء لأبيك حتى نجد طريقاً للنجاة!"

****

وصل محجوب إلى بلاد الطيبين برفقة كلٍ من حكيم ومنصور، ومعه صقره الواقف في شموخ على كتفه، لكنه ما أن خطى بداخلها خطواته الأولى حتى تشنج جسده بشده وفتح جفنيه عن آخرهما ليظهر من تحتهما عيناه البيضاوان فتزيد من بشاعة منظره، أصدر صقره غقغقةً عالية قبل أن يحلق بعيداً، ومحجوب يصرخ منادياً عليه بكل ما أوتي من قوة:

-"لاااا! عُد إلى هنا!" ثم سقط أرضاً يغمغم بكلماتٍ غير مفهومة وسط حالةٍ من الذهول الممزوج بالذعر تعتري كل من يراه وخاصةً حكيم الذي شعر بأنه أخطأ خطأً جسيماً بإحضاره إلى البلاد سيكون ثمنه غالياً للغاية!

الجزء الخامس

صرخ محجوب وجسمه يتلوى ويتشنج أمام الجميع ثم التفت نحو حكيم وهو يردد:

-"الهلاك وشيك!"

ثم استدار للناحية الأخرى وعلامات الذعر جليةً على وجهه وكأنه يرى ما لا يراه غيره فصاح قائلاً:

-"كيف تفعل هذا بي وأنا الذي حررتك من سجنك؟!لقد فقدت بصري لأجلك! لولاي لما نُقض ذلك العهد قريباً!"

تعالت صرخاته أكثر وأصبح جسده يختلج في عنف فاستدار ثانيةً نحو حكيم وهو يقول مُتضرعاً:

-"أخرجني من هنا أتوسل إليك! سيقتلني وستهلكون جميعاً! أنا أعرف ما لا يعرفه سواي ساعدني أرجوك!"

نظر حكيم إلى منصور الذي فهم بدوره ما يدور في عقله، فركض نحو محجوب وجذبه بكل قوته إلى خارج البلدة، كان وزن محجوب ثقيلاً للغاية ويزيد الأمور سوءاً تشنجات جسده المتزايدة التي تعيق حركته أكثر، فسارع حكيم لمساعدة منصور في جذبه حتى نجحا في إخراجه خارج بلاد الطيبين، لاح صقره في السماء قادم إليه من بعيد فعاد جسده يرتخي رويداً رويداً حتى هدأ تماماً، لم يستطع حكيم تمالك أعصابه أكثر، وانقض عليه ممسكاً بتلابيبه وهو يهدر في انفعال:

-" ما الذي تعنيه بأنك من حرره ونقض العهد؟! أأنت السبب في كل ما يحدث لبلادنا أيها الحقير!"

كان جسد محجوب منهك للدرجة التي لا تسمح له نهائياً في الدخول في شجار أو حتى الاكتفاء بالمقاومة، فقال بصوتٍ متهدِّج وأنفاسٍ متقطعة:

-"اتركني وسأخبرك بكل شيء لكن أرجوك أعدني إلى الجبال أولاً ليس أمامي وقت طويل سيلحقون بي!"

وكزه حكيم في كتفه صائحاً في غضب:

-"لا تُراوغ أيها المخادع ستخبرني هنا والآن وإلا سأُدخلك إليه ثانيةً ليقضي عليك"

أشار محجوب بيده قائلاً:

-"لا تفعل أرجوك سأخبرك بكل شيء!

بعد أن طردني جدك من البلاد، عشت منبوذاً بجوار من تبقى من قومي في الجبال، كرهوني لما عرفوا بعملي في السحر، لم يكترث لشأني أحدٌ سوى أخي الذي بقي في بلاد الطيبين ولم يشأ مختار طرده لأنه كان مزارعاً طيباً لا شأن له بما أفعله أنا، كان يتسلل إلى خارج البلدة بين الحين والآخر ليزورني هو وابنه، ثم انقطع عن زيارتي لفترةٍ طويله بعدها جاءني ابنه ومعه طفله الصغير أثير، جاء ليخبرني بأن أخي قد مرض مرضاً شديداً ولم يكن قادراً على المجيء إليّ حتى توفي، وقبيل وفاته وصى ابنه بالاستمرار في زيارتي.

منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناي على أثير وقد راودتني فكرة! ذلك الطفل الذي لم يتجاوز سنواته الأربع هو السبيل لدخول بلادكم ونقض العهد! فعالم الأطفال الصغار قوانينه تختلف عن عالمنا، باستطاعتي استخدامه كجسر لعبور أعواني إلى داخل البلدة دون أن يُقتل ذلك المارد، طلبت من ابن أخي اصطحاب أثير معه في كل مرةٍ يزورني فيها، وظللت أفكر ليل نهار في كيفية تنفيذ ما أريده، لم يكن الأمر سهلاً في البداية فعلى الرغم من يقيني من صحة ما أقول إلّا أن أعواني رفضوا تنفيذ ما طلبته منهم خوفاً من بطش المردة بهم إن فشل الأمر وقُتل شيطانهم في محبسه، قدمت الكثير لهم حتى وافقوا ولكن كان شرطهم أن أفقد بصري حتى يتم اتصالي بالطفل على نحوٍ يمكنني من الرؤية بعينيه لتنفيذ ما أريده، وافقت على مضض، وأفقدوني بصري بالفعل! وفي الزيارة الأولى لأثير بعدها نفذت اتصالي بعينيه دون أن يشعر والده بشيء، أصبحت أرى ما يراه وقتما أشاء، لم أصدق ما رأته عيناي حينما عاد أثير إلى بلاد الطيبين وأصبحت أتجول بين طرقاتها التي حُرمت منها منذ زمنٍ بعيد!

نجح الأمر وتأكد أعواني من دخول أحدهم إلى البلاد عبر جسد أثير دون أن يؤثر ذلك على العهد، مرت عدة أيام وأنا أدرس الموقف جيداً، الطريق الذي يسير فيه ابن أخي كل يوم، ومن يقابلهم ومن يسكن بجوارهم حتى رأيت تلك الفتاة التي تمر من

أمام منزله كل يوم صباحاً، جعلت أثير يتتبعها إلى حيث تذهب، فوجدتها تذهب إلى مزرعة والدها لتعتني بركن مخصص لأزهارها ثم تعود إلى منزلها.

وجدتها الضحية المثلى لما أريد فعله! انتقلتُ مباشرةً إلى الخطوة التالية وأمرتُ معاوني بمغادرة جسد أثير إلى جسد والده ودفعه لملاحقتها وقتلها في صباح اليوم التالي، وحدث ما أردته تماماً وسالت الدماء على أرض بلاد الطيبين للمرة الأولى منذ زمن ونقض العهد وتحرر المارد، بعدها هرب ابن أخي مع زوجته وأثير وجاؤوا إليَّ في الجبال خوفاً من افتضاح أمره بالرغم من اتهام منصور بذلك فعقله لم يقو على إدراك ما فعله بالفتاة وقرر الهروب، لكني كنت متيقناً من أن الوقت لن يسنح لهم لكشف شيء فستنقلب أحوالهم رأساً على عقب!"

****

وقف عمران في شرفة منزله ليلقي خطابه الهام الذي أمر جميع أهالي البلدة لسماعه، حكى لهم ما قام به جده مختار قديماً ثم استطرد حديثه في صرامةٍ قائلاً:

-" دماء فرحة التي سالت غدراً قد أطلقت سراحه ورأيتموه بأعينكم في ذلك اليوم، عاد بكل ضراوة هو وقومه يهاجمون بلادنا، أو بالأحرى يهاجمون نفوسنا ليخرجوا أسوأ ما فيها فيكون هلاك بلادنا!

هو يستمد قوته من ضعف نفوسنا ونجاتنا في أيدينا! علينا أن نعيَ ما يفعله بنا ونقاومه باللجوء إلى خالقنا ليساعدنا!"

قاطع حديثه صوت منادٍ قادم من بعيد يقول في ذعر:

-"حيدر ورجاله قادمون!"

لم يكد يتم عبارته حتى ظهر حيدر من خلفه وبجواره عابد، كل منهما على ظهر جواده يتبعهما عدد كبير من الرجال المدججين بالأسلحة!

خرج عمران من بيته راكضاً نحو أخيه وهو يخاطبه في فزع:

-"ماذا تفعل يا حيدر؟ لم أتوقع أن تكون ضعيفاً إلى تلك الدرجة، أصبحت في قبضتهم يحركونك كما يشاؤون، تستسلم لأطماع نفسك على نحوٍ مشين!"

قاطع حديثه عابد قائلاً:

-"ابتعد عن طريقنا يا عمران! أنت أضعف من أن تحكم هذه البلدة وسيدي حيدر أجدر بالحكم منك!"

حدق فيه عمران ذاهلاً وهو يقول:

-"ماذا دهاك يا عابد؟ موت ابنتك أفقدك عقلك!"

صاح حيدر قائلاً:

-"عابد أصبح مساعدي وعرّاف هذه البلاد، وأنا حاكمها!"

سمعت هدى اسم والدها فلم تصدق اذنيها ركضت باتجاهه لكن أحد رجاله تصدى لها وجذبها من ذراعها مبتعداً حتى لا تُفسِد كل شيء.

قال عمران بنبرةٍ رصينة:

-"لك ما تريد يا حيدر لكن أرجوك بلا إراقة دماء!"

هدر أحد رجال البلدة في غضبٍ شديد:

-"من تظنون أنفسكم لتقتحموا بلدتنا على هذا النحو وتهددوا حاكمنا؟! لن نستسلم لكم بتلك البساطة!"

أثارت عبارته الحماس في نفوس أهالي البلدة فتعالت صيحاتهم يطالبونهم بالمغادرة

لكن عابد صدح آمراً رجاله:

-"أروهم قوتكم يا رجال!"

قالها فهجم رجاله واحتدم الشجار فسالت الدماء! دماء الكثيرين من أهالي البلدة!

****

انفجرت الدماء في عروق حكيم غضباً بعد أن أنهى محجوب حديثه واعترافه بما فعل، فصفعه صفعةً قوية أرقدته على الأرض وهو يئن في ألم، ثم أمسك بتلابيبه وأرغمه ليعتدل جالسا وهو يقول في غضبٍ عارم:

-"أخبرني أيها اللعين ما السبيل للخلاص منهم؟!"

أجابه في وهنٍ شديد:

-"ليس أمامكم سوى حل واحد! حرق التمائم المدفونة في الأرض البور! فحرقها سيؤدي إلى موت المارد وهروب قومه بعيداً عن بلادكم، لكن لن يستطيع فعل ذلك سوى شخص ذو نفسٍ قوية وقلبٍ نقي"

نظر حكيم إلى منصور الذي ارتعد خوفاً وهو يهز رأسه نفياً، فأردف محجوب قائلاً:

-"نعم منصور قادر على فعلها! سيفعلون ما بوسعهم ليوقفوك لكن قوة نفسك ستحصنك منهم، عليك فقط ألا تصدق عيناك ما ستراه مهما بدا حقيقياً وألا تلمس أي شيء يظهر في طريقك سوى صخرة في منتصف الأرض ستجد تحتها التمائم"

لم يكد يتم عبارته حتى وصل إليهم رسول من عمران يستنجد بهم ويخبرهم بما حدث، عضَّ حكيم على شفته السفلى في مرارة وقال مخاطباً منصور:

-"لقد تأخرنا كثيراً! أنت أملنا الوحيد يا منصور أسرع يا ولدي قبل فوات الأوان!"

الجزء السادس

أطلق منصور العنان لقدميه راكضاً باتجاه الأرض البور، بينما أشار حكيم لرسول عمران بجذب محجوب ليعيده إلى داخل البلاد، صرخ محجوب في جزع وهو يتوسل إلى حكيم بألا يفعل بعدما ساعده ودله على وسيلة الخلاص مما هم فيه، لكن حكيم صاح في وجهه غاضباً:

-"أنت من جلب علينا كل هذا الخراب، أنت السبب في إراقة الدماء، وقد حان وقت دفع الثمن!"

طار صقر محجوب مبتعداً معلناً تخلي أعوانه عنه، بينما واصل هذا الأخير توسلاته المضنية إلى حكيم والتي لم تلق أي استجابةٍ تذكر!

دخلوا إلى البلدة فبدأ جسد محجوب يتشنج في عنفٍ ثانيةً، وقد خارت قواه حتى أنه لم يعد قادرٌ على الصراخ، ظلّ يغمغم في خفوت مردداً بعض الكلمات كمحاولةٍ أخيرةٍ للنجاة، لكنه فغر فاه فجأةً في ذعر وقد رأى ما لا يراه غيره رآهم قادمون نحوه من كل حدبٍ وصوب قبل أن يظهر من بينهم المارد الذي تسبب في حبسه لسنوات، حدق فيه بعينيه المتقدتين ثم اقترب منه في سرعةٍ خاطفة ليشعر محجوب بأن كل ذرةٍ في جسده تتمزق، انطلقت من حلقه صرخة ألمٍ هائلة ارتج صداها في أرجاء البلدة حملت كل ما تبقى لديه من قوة قبل أن يسقط جسده جثة هامدة!

****

وصل منصور إلى السور المحيط بالأرض البور، سرت في جسده قشعريرة بارده من فرط الخوف، ثم اتخذ قراره وعبره إلى الداخل، ما أن خطا بداخله بضع خطوات حتى شعر بانقباضه شديدة في صدره وتعالت دقات قلبه على نحوٍ لافت، وكأن شيء ما يجتاح جسده فيفقده القدرة على الحراك، أغمض عينيه محاولاً السيطرة على خوفه الجارف ولسانه يذكر ربه بلا انقطاع، لكن تقدمه كان بطيئاً للغاية، ثقلٌ شديد يشعر به في قدميه وانقباضه صدره تزيد كلما تقدم أكثر، لكن شعوره بمسؤوليته عن تخليص بلدته ساعده على مواصلة السير، وفجأةً شعر بحركةٍ بجواره التفت فرأى فرحة تنادي عليه باكيةً "أرجوك لا تفعل سيقتلونك!"

ثم رأى رأسه مقطوعة تتدحرج أمامها!

ارتعد جسده في ذعر ودمعت عيناه حتى أنه كاد يركض هارباً لكنه تذكر أنه لا يجب أن يصدق ما يراه، تلك خدعة لإثنائه عما ينوي فعله، أشاح بنظره بعيداً عنها وتابع سيره فتعالت صرخات فرحة ترن في أذنيه على نحوٍ جعله يضغط على أذنيه بكفيه ليتوقف عن سماعها!

قاوم خوفه بصعوبةٍ بالغة وتابع تقدمه ليظهر أمامه ذلك الكيان الأسود الهائل الحجم مقارنةً بجسده الضئيل يحدق فيه بعينيه المستعرتين، تجمدت قدماه في مكانهما واستدار عائداً، تمنى لو ينطلق راكضاً بلا توقف لكنه تماسك وأغمض عينيه ثم جعل يذكر ربه بصوتٍ مرتفع ويطلب منه المساعدة متجاهلاً تلك الأصوات المفزعة التي تخترق أذنيه وشعوره بخروج أشياء من الأرض حوله تتحرك باتجاهه، اقترب كثيراً من المنتصف فتذكر وصف محجوب عن صخرةٍ في المنتصف تماماً مدفونة تحتها التمائم، فتح عينه في حذر ليرى إن كان قد وصل إلى الصخرة، كادت صرخة مجلجلة تخرج من حلقه لولا أنه كتمها في اللحظة الأخيرة حينما رأى جثث أمه وإخوته ملقاةً حول الصخرة لم يستطع الثبات أكثر وركض نحو أمه باكياً وقبل أن يلمسها تذكر تحذير محجوب فابتعد وقلبه يتمزق ليعرف إن كانت هي حقاً أم لا، أزاح الصخرة من مكانها وهو يرى ذلك الكيان يدور حوله كالمجنون عاجز عن الوصول إليه، أخذ يحفر في الأرض بكل ما أوتي من قوة حتى وصل إلى التمائم وأخرجها ثم أخرج من جيبه عود ثقاب وأشعله بسرعه ثم ألقاه عليها فاشتعلت في الحال!

سمع صرخات مدوية تخترق أذنيه لتصيبه بحالة من الذعر الشديد فقد على أثرها قدرته على الحراك وشعر بارتجافه شديدة في جسده أفقدته قدرته على الصمود أكثر فسقط مغشياً عليه!

****

ارتاعت هدى وهي تتابع ما يجري بين أهالي بلادها للمرة الأولى منذ قدمت إلى هذه الحياة، والأسوأ أن يكون والدها المسئول عما يحدث، تذكرت تحذير عمران لها من الاقتراب منه حتى لا تعرض حياتها للخطر لكنها قررت الذهاب إليه وإن كلفها ذلك حياتها، فقد تكون سبباً في وقف نزيف دماء أهل البلدة، ارتدت عباءة والدها ذات غطاء الرأس، وغطت به رأسها وجزء كبير من وجهها ثم توجهت نحو باب

المنزل، لكنها تذكرت وجود الحارس الذي جذبها وأعادها إلى منزلها عنوة وبقي بجوار الباب ليضمن عدم خروجها، فاتجهت إلى نافذةٍ جانبية وقفزت منها بعد أن تأكدت من عدم وجوده قربها، ثم تسللت بين طرقات البلدة إلى حيث المعركة القائمة، لم يكون الوصول إلى والدها صعباً فقد كان يمتطي جواده بالقرب من جواد حيدر، ركضت باتجاهه حتى أصبحت بجواره تماماً وقبل أن ترفع غطاء رأسها قيد الحارس ذراعيها من الخلف وهو يضع يده على فمها ويسحبها، لكنها استجمعت قوتها وركلته بقدمها ركلةً أفقدته توازنه لثواني لتصرخ بأعلى صوتها:

-"أبي أنا هدى انظر إلي!"

التفت نحوها عابد بحركةٍ تلقائية، فرفعت رأسها للأعلى بقوة لتسقط غطاء الرأس عنها فانكشف وجهها ونظرت إليه بعينين باكيتين قائلةً:

-"ماذا فعلت يا أبي! أوقف هذا الجنون!"

أخرج الحارس سيفه من غمده ووضعه على رقبتها فصاح عابد في فزع:

-"اتركها أيها اللعين! ثم نظر حوله فهاله ما يحدث وكأنه يراه للمرة الأولى"

صرخ بأعلى صوته وهو يقفز من فوق ظهر جواده:

-"توقفوا! أفيقوا ماذا تفعلون ببعضكم!"

هدر حيدر في غضب:

-"ما الذي تقوله أيها الغبي!"

انتبه عمران لما يجري فأمر أحد رجاله بتخليص هدى من يد ذلك الحارس قبل أن يؤذيها، فانطلق إليه وضربه ضربةً طرحته أرضاً، فانطلقت هدى راكضةً نحو والدها الذي ضمها في أسف قائلاً:

-"سامحيني يا ابنتي!"

ثم تركها وركض إلى وسط المعركة تماماً وهو يصرخ:

-"يكفي هذا! توقفوا! قاوموهم أيها الطيبين!"

انضم إليه عمران ووقف إلى جواره ينادي عليهم ليتوقفوا، بدأ البعض يستجيب لهما ويتراجع مبتعداً، ثم أصبحوا ينادون على غيرهم ويمنعوهم من القتال، فأخذوا يتوقفون شيئاً فشيئاً.

جن جنون حيدر وقد شعر بأنه سيخسر سيطرته عليهم، فانهالت صيحاته مشيراً إلى عابد قائلاً:

-"خائن! اقتلوه!"

لم يكد يتم عبارته حتى اخترق سيف صدر عابد فسقط غارقاً في دمائه، ركضت نحوه هدى وهي تنشج في ذعر ثم أمسكت بيديه قائلةً:

-"لا تتركني وحدي يا أبي أرجوك!"

فأجابها في خفوت:

-"سامحيني يا هدى!"

ثم فرت دمعة حارة من عينيه وأردف قائلاً:

-"سامحني يا إلهي!"

سكن جسده بعدها وفارق الحياة، وبمجرد موته توقف الجميع عن القتال وجعلوا يتبادلون نظرات الحيرة والهلع ويتأملون في الدماء التي تغطي أرض بلدتهم والجثث الراقدة هنا وهناك!

لم تمض دقائق معدودة حتى شخصت أبصارهم في ذهول حينما رأوا تلك النيران المشتعلة القادمة من اتجاه الأرض البور، ركض عمران إلى هناك يتبعه بعض رجاله، بينما نزل حيدر من فوق جواده يضرب رأسه بكفيه متأملاً في جثة عابد الهامدة وهو يردد:

-"ويحك يا حيدر!"

****

طلب عمران من رجاله أن يظلوا مكانهم عند السور المحيط بالأرض البور، بينما سيدخل هو إلى الداخل وحده ليرى ما الذي يجري بالداخل، لكنهم أبوا أن يتركوه

بمفرده فلحقوا به جميعهم، انتفض جسده في ألم حينما وقعت عيناه على منصور الملقى على الأرض بلا حراك، فهرع إليه وأخذ يحركه قائلاً:

-"منصور! استيقظ يا ولدي ماذا فعلت بنفسك!"

أتاه صوت حكيم من خلفه قائلاً:

-"لقد ألقى بنفسه إلى الهلاك لينقذ بلادنا رغم ما فعلناه به! ذلك الفتى طيب النفس حقاً"

أخذ منصور يئن في ألم فتهللت أسارير حكيم وجلس بجواره يهزّ جسده قائلاً:

-"افتح عينيك أيها البطل!"

فتح منصور جفنيه في ثقل وهو ينظر إليه قائلاً:

-"لقد نجحت يا سيدي حكيم! احترقت التمائم واحترق هو معها!"

****

أخبر حكيم جميع أهالي بلاد الطيبين بحقيقة ما حدث كاملة، وتم تبرئة منصور وعلم الجميع بما فعله من أجلهم، فعاد إلى بلدة عمران مرفوع الرأس وكان أول ما طلبه منه بعد عودته أن يسمح له بالزواج من هدى ليواسيها ويرعاها حتى لا تبقى وحيدة بعدما حدث لوالدها!

****

أمر عمران بدفن جميع ضحايا تلك المعركة المؤسفة بداخل الأرض البور بعدما قاموا بإزالة الأسوار المحيطة بها، بل أنه أمرهم بأن يمروا عليها في انتقالاتهم بين البلدات الثلاث ليتذكروا دائماً نتيجة ضعفهم واستسلامهم لعدوهم، وبعد أن انتهوا من الدفن وقف عمران يخاطبهم قائلاً:

-"سيعودون قريباً جداً! ولن أبحث عن وسيلةٍ تمنعهم كما فعل جدي، هي معركةٌ أبدية لا سبيل لمنعها، بل سنتعلم سويةً كيف نقاوم ذلك العدو الخفي الرابض بداخلنا وننتصر عليه، وتذكروا دوماً أنكم استطعتم أن توقفوا القتال من قبل أن يحترق!"

تمت

.....

الكاتبة مها سيد عبد الرحمن كاتبة رواية "مملكة سيڤارا"

الصفحة الرسمية للكاتبة:

https://www.facebook.com/Maha-Sayed-Abdelrahman-مها-سيد-عبد-الرحمن-117973116713609/

.....